

القيم الأخلاقية والدينية بين الانغلاق والانفتاح عند برغسون

Moral and religious values between Bergson's closing and openness

موسى أمعوش¹

جامعة الجزائر 2

amaouche.moussa89@gmail.com

تاريخ الوصول 2019/10/12 القبول 2021/12/21 النشر على الخط 2022/04/15

Received 12/10/2019 Accepted 21/12/2021 Published online 15/04/2022

ملخص:

إن مساهمة برغسون في مجال الأخلاق والدين شكلت مرجعية في تاريخ الفكر الفلسفي المعاصر، من حيث أنها قدمت لنا معنى جديدا للحياة الإنسانية، خصوصا وأن ذلك جاء في فترة عرفت تأزما فكريا في الغرب إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وما صاحبه ذلك من ظهور الموجه العلمية البيولوجية، المغالية في تفسيراتها عن طريق العقل، هذا جعل برغسون يتبنى الطرح الذي مضمونه أن الذات الإنسانية ذات مبدعة تخلق ذاتها باستمرار، وهذا ما زاد في تنامي روح الإنسان وانبعاثه من جديد، كما أن ذلك هو كشف وتطلع لغاية أخلاقية دينية وجودية.

الكلمات المفتاحية: الأخلاق، الدين، الانفتاح، الانغلاق.

Abstract:

Bergson's contribution to moral and religious has been a reference in the history of contemporary philosophical thought by which we have given a new meaning to human life, especially it appeared during a period of intellectual crisis in the west within the second half of the nineteenth century accompanied by an emergence of the scientific and biological, wave is exaggerated in its interpretation by mind, What carried Bergson to adopt the thesis that the self is creative, it is constantly being created, which has increased the spirit of the man and its resurgence as it revealed itself and aspired to an ethical and religious existential goal.

Keywords: moral, religious, closing, openness.

البريد الإلكتروني: amaouche.moussa89@gmail.com

¹ - المؤلف المراسل: موسى أمعوش

1. مقدمة:

إن مقارنة برغسون (Henri bergson 1859_1941) في مجال الأخلاق والدين مقارنة مختلفة تماماً عن المقاربات السائدة، فرادتها تتجلى في طريقة التحليل والدقة والعمق لهذا المجال الذي تحتدي وتتقوم به الإنسانية، ويعتبر النموذج التطبيقي الحقيقي لفلسفته الأولى، بدليل أن جل التصورات التي قدمها في فلسفته الأولى خاصة في مؤلفاته "بحث في المعطيات المباشرة للوجدان"، "التطور الخالق" و"الطاقة الروحية" هي مجرد تصورات نظرية محضة، ومعطيات ممهدة لفلسفة تطبيقية، أساسها بناء القيم الإنسانية، لدرجة أن الكثير من دارسيه بينوا أن فراغه من كل فلسفته الأولى بكل أطيافها سواء في التطور، الآلية، المادة والزمان ستظل هي فلسفة من العسير تطبيقها في حياة الإنسان، لكن ما حدث لم يكن يتصوره العقل الإنساني فقد بدا الأمر مختلف تماماً في مؤلفاته الأخيرة.

إن مؤلفه الأخير والشهير "منبع الأخلاق والدين" (les deux sources de la morale et de la religion)، شكل التطبيق الحقيقي لفلسفته ولم يكن سوى عارضة فكرية شاملة للعديد من المفكرين والفلاسفة، بحكم أنه من المؤلفات البارزة التي كرسها لتبيان حقيقة ومعنى قيمة الحياة الإنسانية، انطلاقاً من الأخلاق والدين، مؤكداً بذلك أن الحياة لا يمكن لها أن تتأسس بمعزل عن هذين المصدرين (الأخلاق، الدين) اللذين يعدان القيم والمبادئ الأساسية الضرورية المطلقة لها، خصوصاً عند أخذهما وتطبيقهما وفق مبادئهما الصارمة ومن هنا تتلخص أهمية موضوع بحثنا المتمثلة فيما يلي :

— تسليط الضوء على هذه القيم الكونية، وتحديد العلاقة فيما بينها، وبين الإنسان والمجتمع ضمن إطار الانغلاق والانفتاح.
— معرفة التجربة الحقيقية التي ينبغي لنا الاقتداء بها من أجل اقتفاء أثر الدين والأخلاق، وآثارها اليوم في المجتمعات الراهنة باعتبارها كانت تمثل عائقاً بالنسبة لها قبل ظهور كتابات برغسون.

— إدراك ماهية الدين والأخلاق، من حيث هي قيم ومبادئ ضرورية لمستقبل الإنسانية من وجهة نظر برغسون، خصوصاً وأنها شكلت محور فكر الإنسانية في الآونة الأخيرة، بناء على ظهور تصورات عديدة حولها من قبل الفلاسفة والمفكرين.
من خلال ما سبق يمكن طرح العديد من التساؤلات منها: ما طبيعة هذه القيم الدينية والأخلاقية في نظر برغسون؟ وما هو جوهر العلاقة بينهما؟ وما دلالتهم بالنسبة للإنسان؟ للإجابة عن هذه التساؤلات ارتأينا إلى تقسيم هذا البحث إلى قسمين أساسيين، وكل واحد منهما يتضمن عناصر فرعية:

— القسم الأول: يتمحور حول طبيعة الأخلاق وفيه حاولنا تبيان معنى الإلزام الخلقي، وأقسام الأخلاق منها الأخلاق المغلقة والأخلاق المفتوحة.

— القسم الثاني: يتناول طبيعة الدين، وفيه تم عرض أقسام الدين من منظور برغسون منها: الدين الساكن والدين المتحرك، كما تطرقنا إلى توضيح العلاقة بين الأخلاق والدين، وفي الأخير تم الوصول إلى استخلاص مجموعة من النتائج.

2. طبيعة الأخلاق:

1.2. معنى الإلزام الخلقي:

إن برغسون في معرض حديثه عن التجربة الأخلاقية ينطلق من فكرة بالغة الأهمية وهي فكرة الإلزام الخلقي، وفي تناوله لهذا الأخير يؤكد على نقطة أساسية مفادها: أن الإلزام الخلقي لا ينشأ ويتأتى خارج المجتمع والحياة الاجتماعية عامة، بدليل أن الحياة الاجتماعية قبل قرون كانت حافلة بمختلف العادات، التقاليد ومختلف الضوابط... وغيرها من القيم التي ضلت موروثاً فيها، وهي التي تحدد طبيعة السلوك

الإنساني، وتعمل على توجيهه فكانت تلك العادات والتقاليد التي تمارس ضغط على إرادتنا هي تعبير حي عن الإلزام، أو على حد قول برغسون: "الحياة الاجتماعية (...)", طائفة من العادات المتأصلة تفي بحاجات الجماعة وبعض هذه العادات عادات أمر، وأكثرها عادات طاعة سواء أكانت الطاعة لشخص يأمرنا بالنيابة عن المجتمع، أم كانت لأمر غير شخصي يصدر عن الجماعة نفسها، من غير أن ندركها أو نشعر بها على نحو واضح بين وكل عادة من عادات الطاعة هذه تضغط على إرادتنا"⁽¹⁾.

إن هذا السلوك والضغط والتوجيه الإنساني النابع من تلك العادات والقيم والتقاليد، يجب على الفرد أن يعمل على طاعته ويخضع له، ولا يمكن له أن يتمرد عنه، هذا الضغط والخضوع هو ما يعرف بالإلزام أو الواجب الأخلاقي، إنه القاعدة الأساسية التي بنيت عليها كافة المجتمعات من قبل وهو أساس تماسكها، و يشكل بنيتها التحتية، ومهما حاول الفرد الانفصال عنه أو عن تلك القيم، العادات والضوابط تراه يشعر أنه ملزم بها ومحكوم بها ودائما ينساق وراءها، وإذا ما حاول تجاوزها فإنه يكون قد تجاوز حدود وأعراف تلك الجماعة، وفي هذه الحالة يصبح مقيدا إن لم نقل مستلب الحرية، لأنه مخير، فتصبح إرادته الخاصة هي إرادة خاضعة وحبيسة لإرادة تلك الجماعة، هذا ما يؤدي إلى طمس عزيمتها وكبح قوتها في الكثير من الأحيان.

وقد تعد هذه الإلزامات أساس استمرار هذه المجتمعات وتماسكها كما بين برغسون هذا من ناحية، لكن ناحية أخرى هي مصدر التسلط، العنف، الضراوة والقهر، هذا القهر أشبه ما يكون بذلك القهر الذي تخضع له ظواهر الطبيعة للعوامل الطبيعية الخارجية، من حيث أنه يجعل الإنسان لا يستطيع أن يعيش حياة حرية وطمأنينة، وأنه يحس ويشعر بنوع من العبودية التي تلوث سلوكاته، وحياته تكون خالية من السعادة، التحرر، وتحقيق الغايات القصوى بل هي حياة مغلقة على ذاتها، فلا يمكن تجاوزها، في حين أن حياته حياة حرية قائمة على قدسية القيم المثلى التحررية، لأن المجتمع في طبيعته يتشكل من كائنات تتمتع بالحرية والقيم المفتوحة، أو كما يقول برغسون: "المجتمع البشري مجموعة من كائنات حرة، ولكن هذه الالتزامات التي يفرضها، تمكنه من البقاء تدخل عليه نوع من النظام يشبه النظام القاهر الذي تخضع له الظواهر الحية"⁽¹⁾.

يتأكد هنا أن هذه الإلزامات هي أخلاقية، لكن هي وليدة ضغط هو الضغط الاجتماعي، وأن الفرد من خلالها يقوم بمجموعة من الأوامر والنواهي، لا تستطيع أن تتعدى حدود ما تفرضه تلك الجماعة، وما تغرسه من قيم ومبادئ أخلاقية، وأكثر من ذلك جميع السلوكات التي يقوم بها هي سلوكات تسلت من ذلك الضمير الجمعي، وهو النظام الأخلاقي الذي لا يختلف عن النظام العلمي والطبيعي الذي يمارس على الظواهر الطبيعية، ومن ثم فالفرد لا يستطيع بناء سلوكاته وأخلاقه وسط هذا الضغط، والإلزام، والقهر، لأن ذلك يتسبب في إنتاج نظام أخلاقي مغلق، وينبغي التحرر من ذلك القهر الذي ينسب إليه، لكن هذا التحرر لا يتمثل فيهدم القيم والعادات التي جبل عليها ذلك الإنسان في إطار الجماعة مباشرة، بل توجد قيم أخرى مستقلة يجب أن يحققها ويتحلى بها، وعن طريقها يستطيع تغيير نمط وسلوك حياته ويختار مستقبله، ونعني بذلك بناء قيم أخلاقية مفتوحة لكن كيف يتسنى للإنسان بناءها وتحقيقها؟

إن هذه القيم حسب برغسون لا يمكن بلوغها دون التمييز بين شيئين أساسيين وهما العقل والغريزة أو كما يؤكد ثمة اتجاهين أساسيين في الحياة ينبغي التمييز بينهما، تقودهما ما يسمى "الوثبة الحيوية" أو إندفاع الحياة، وعندما نقول إندفاع الحياة أو الوثبة الحيوية، يقصد بها تلك القوة المستترة التي تعمل على إخضاع كل ما يوجد في الكون وفي حياة الإنسان لنظام دقيق ومحكم، وهي التي تبين لنا أن

(1) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، ترجمة سامي الدروبي، عبد الله عبد الدائم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971، ص14.

(1) _ هنري برغسون منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص15.

الصور التي تبدو لنا في الحياة على البساطة هي في الحقيقة تحتوي على قوة داخلية تسمو بها إلى أعلى صور الحياة ذاتها ومثلها⁽²⁾ وهناك من يعتقد حتى بأنها هي الله ذاته، وتعني ذاتها أكثر عندما تكون أمام هذين الاتجاهين المتمثلين في الغريزة والعقل، الأول تمثله المجتمعات المغلقة) يقصد بها المجتمعات البدائية، التي تشبه عند برغسون مجتمع الحشرات في عاداتها وأخلاقها)، أما الثاني فتمثله المجتمعات المنفتحة التي تتمتع بقيم أخلاقية مثالية مفتوحة ومتحضرة.

وبناءً على هذا التقسيم أقام برغسون مذهبه في الأخلاق، وبين في مؤلفه منبع الأخلاق والدين أنه ثمة نوعين من الأخلاق يقابلان هذين الاتجاهين السابقين، وهما: الأخلاق المغلقة، والأخلاق المفتوحة⁽³⁾.

1.1.2 الأخلاق المغلقة:

إن طبيعة هذه الأخلاق كما بينها برغسون لا تتجاوز وتتعدى حدود الجماعة المغلقة، بل هي منبثقة منها، وتتجسد أكثر في المجتمعات البدائية التي تأسست على مختلف العقائد، القيم، الأعراف والعادات المغلقة، والفرد في هذه المجتمعات يستمد كامل سلوكاته من تلك العادات والتقاليد التي تفرضها الجماعة، والثبة الحيوية من حيث هي قوة خلاقة توجد وراء المادة تعمل على إنتاج العديد من الصور الحية تساهم في بناء وخلق هذه المجتمعات المغلقة على ذاتها، والمتعصبة لهذه السلوكات اللاأخلاقية، بالإضافة إلى ذلك نجد أن هذه المجتمعات يشكلها مجموعة من الأفراد، هؤلاء إنما هدفهم الوحيد هو فقط صيانة تلك الجماعة والخضوع لكل الأوامر والنواهي التي تفرضها. ويشبه برغسون أخلاقها بأخلاق بعض مجتمعات الحشرات، كمجتمع النمل والنحل في طريقة عيشه وسلوكاته، تلك التي تجسد لنا كيفية خضوع المصلحة الخاصة للمصلحة العامة، ومحركها الأساسي هو الغريزة، وكل إلزام نابع من الغريزة هدفه لا يخرج عن تحقيق مصلحة ذلك المجتمع لوحده فقط وتحقيق كل ما هو ضروري بالنسبة له للحفاظ على كيانه وحياته الاجتماعية، وهذه هي المجتمعات البدائية الغير متحضرة، والتي تجعل من مختلف العادات والتقاليد التي ألقتها هي إلزامات ضرورية لها، وعلى أساسها تبنى مختلف سلوكاتها، الفرد من حيث هو جزء منها لا ينفصل عنها ودائما يخضع لسلطانها⁽⁴⁾.

وبناءً على ذلك يكون الإلزام الذي تتأسس عليه تلك المجتمعات كما يقول برغسون: "بمثابة العادة من الطبيعة، فهو إذن لا يأتي من الخارج تماماً، فكل واحد منا ينتسب إلى المجتمع، وينتسب إلى نفسه أيضاً فإذا تعمق المرء نفسه اكتشف له شعوره عن شخصية أصيلة ما تزال تزداد أصالة كلما أوغل في التعمق"⁽²⁾ ومعنى ذلك أن هؤلاء الأفراد الذين يعيشون ويشكلون هذه المجتمعات، شخصيتهم إنما هي شخصية الضمير الجمعي إن صح هذا القول، ويتضح لهم ذلك كلما استدعوا شعورهم.

ولما كان ذلك الإلزام وليد المجتمع ذاته، فإن الفرد هنا يخضع لضغط هو ضغط جمعي يتمثل في المحافظة على كل القوانين والقواعد التي تليها الجماعة من أجل أن يعيش حياة سعيدة، ومن هذا الخضوع والطاعة ينشأ ما يعرف "بالعقل الجمعي"، الذي لا ينبغي الخروج عن مقتضياته ومبادئه أو الإعراض عنها، أو ما يعرف عند إميل دوركايم "بالعادات" التي نشأت عنها تلك الجماعة منذ حياتها الأولى، كما أنها تقاليد لا تسمح لأي فرد أن ينكرها أو يؤدي سلوكاته بمعزل عنها، هذه الحياة التي يعتقد برغسون أنها حياة الغريزة، لأن أخلاق هذه

(2) هنري برغسون، التطور المبدع، نقلة إلى العربية جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، لبنان، 1981، ص 94.

(3) زكريا إبراهيم، برجسون، دار المعارف، مصر، 1968، ص 187.

(1) زكريا إبراهيم، برجسون المرجع السابق، ص 188.

(2) هنري برغسون، التطور المبدع، المصدر السابق، ص 19.

المجتمعات هي أخلاق غريزية لا غير، وتشبه في ذلك مجتمع الحشرات التي تقتصر على تحقيق الواجبات لا أكثر، ولذلك فالضمير الفردي يخضع لخدمة الضمير الجمعي هذا ما ينفي وجود الحرية والعدالة، وهذا يدل على أن هذا النوع من المجتمعات لا يمتلك القابلية لكي يفتح على الكوني الأخلاقي⁽³⁾ بدليل أن جميع العادات التي تنطوي عليها هي عادات تؤدي دور الغريزة في إقامة العلاقات، وتحقيق الروابط بين أفراد المجتمع الإنساني⁽⁴⁾.

ويقول برغسون معبرا عن هذه الغريزة بقوله: "أن الغريزة الاجتماعية التي وجدناها في أعماق الواجب الاجتماعي _ والغريزة ثابتة بعض الشيء _ إنما تستهدف أبدا مجتمعا مغلقا، مهما يكن هذا المجتمع واسعا"⁽¹⁾ وهذا إنما يدل على أنها (الغريزة) هي أساس الانغلاق، ويصبح الواجب بناء على ذلك هو واجبا غريزيا أكثر منه عقليا، ويكون التفكير عن طريق الغريزة لا يخرج عن الإطار الاجتماعي بل يدين له، فإذا علينا أن نرجح في اعتقاد برغسون الكفة لصالح العقل، حتى لا تصبح كل واجباتنا الخلقية واجبات آلية بيولوجية، ويجب الترفع عن هذا النوع من الأخلاق لأنها تمثلها غريزة الحياة، ومن ثم هي أخلاق مغلقة وساكنة لا ترقى بالإنسان والمجتمع⁽²⁾.

أضف إلى ذلك هذا النوع من الأخلاق لا يساعد الإنسانية في بناء مستقبلها وتحديد مصيرها، لأنه لا يفكر في بناء مجتمع منفتح ومتحضر، بل يكرس الخضوع، العبودية، الانحطاط وعدم التحرر، ولذلك يجب تجاوزها لأن نموذجها هو نموذج الحياة البدائية، وحياة الإنسان الأول، كما أنها وليدة أفراد عاديون يعملون على تشريع القوانين التي تتحكم في السلوكات بما يخدم أغراضهم الشخصية، وفي نظر برغسون باستطاعتنا بناء أخلاق متميزة أو ما يعرف بالأخلاق التي تنشأ المستقبل، ولا تنغلق على ذاتها، تشبه أخلاق العظماء والأبطال الموهوبين من طرف الوثبة الحيوية، وهي الأخلاق التي يصطلح عليها بأخلاق الكمال أو الأخلاق المفتوحة.

2.1.2. الأخلاق الكاملة (المفتوحة):

إن ميزة هذه الأخلاق أنها ليست وليدة الضمير الجمعي، وإنما مصدرها الاستمالة السامية إنما أخلاق تدعو إلى الانفتاح، التحرر، الإنسانية، ومصدرها قوة متعالية تتمثل في "الوثبة الحيوية" التي تتجسد في القيم والمثل العليا وينفرد بها كبار القديسين، المتصوفة، العظماء، وتفوق الأخلاق الأولى من حيث طبيعتها، وهي أخلاق كونية عالمية تنشأ المحبة، العدالة المطلقة، والتآخي والتعايش، وتستهدف إنسانية الإنسان⁽³⁾.

ويعبر عنها برغسون أحسن تعبير حين يقول: "... فبينما نرى أن الأخلاق الأولى تزداد صفاء ونقاء على قدر ما نستطيع ردها إلى قوانين لا شخصية، نجد أن الأخلاق الثانية لا تكون هي ذاتها ما لم تتجسد في شخصية ممتازة تتخذ قدوة تحتذى، فعمومية الأولى تأتي من قبول الناس عامة قانونا من القوانين، بينما عمومية الثانية تأتي من محاكاة الناس لمثال يحتذونه"⁽⁴⁾ يعني ذلك أن طبيعة الأخلاق المفتوحة هي أخلاق كاملة، قد يتمتع بها رجال عظماء وحكام موهوبون أو شخصيات العظمى، ويذكر برغسون أمثال هذه الشخصيات كالقديسين، والحكماء من قبل كحكماء اليونان، هؤلاء إنما ينبغي أن نجعل أخلاقهم مثالا يحتذى به ونهتدي به أو نتقو به في حياتنا، وأخلاق هؤلاء

(3) _ زكريا إبراهيم، برجسون، المرجع السابق، ص 189.

(4) _ صادق جلال العظم، دراسات في الفلسفة الغريبة الحديثة، دار جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص 134.

(1) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 38.

(2) _ محمد علي أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1996، ج 4، ص 420.

(3) _ زكريا إبراهيم، برجسون، مرجع سابق، ص 192.

(4) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص ص، 40_41.

العظماء تجعلنا نقيم علاقة مع العالم المطلق أو عالم الله لأن الأخلاق التي يتمتعون بها هي أخلاق البطولة، موهوبة من طرف هذه القوة المتعالية.

وعندما نقول أن هذا النوع من الأخلاق يقوم على عاتق هؤلاء القديسين والأبطال، إنما نقصد من وراء ذلك أولئك الذين يبشرون ويوهبون بالقيم الروحية العليا ويمجدونها، في الحقيقة كل هؤلاء الأبطال العظماء الذين استدعتهم الوثبة الحيوية (الله) إلى أسمى الغايات، وأسمى القيم الروحية من إخلاص، ذوق، تضرع، ثبات، ومن هنا إذا كانت الأخلاق المغلقة هي أخلاق محركها الغريزة، فإن هذه الأخلاق المفتوحة هي أخلاق العقل تستدعي وتطلب البطولة، لأنها تعمل على تلبية نداء البطل، بالإضافة إلى ذلك أخلاق يطلبها ويجذبها المستقبل أي مستقبل الإنسانية جمعاء⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس فالأخلاق الأولى عندما تكون حاضرة في سلوكنا نشعر بنوع من الجبر والخضوع، عكس الأخلاق الإنسانية الثانية هي أخلاق الحرية، والحرية لا تعني عند برغسون غير هذا التحرر من كل ما من شأنه يجعلنا نخضع لسلطة معينة تفرض علينا ضغط أو قهر أو ما إلى ذلك، وحرية تنشأ وتقوم على كل ما هو حيوي منفتح، حركي، وديمومة⁽²⁾ وبهذا تكون هذه الأخلاق ليست التي لا تتميز بصفة الثبات، إنما هي أخلاق الحيوية قائمة على التقدم، والخلق، والإبداع المستمر، وبفضلها نستطيع بناء حياتنا⁽³⁾.

كما أن الأمر لا يتوقف عند هذا بل يؤكد برغسون أن الوصول إلى هذه الأخلاق التي هي أخلاق الإنسانية ليس عن طريق العادات والأعراف والأوهام التي يملئها ذلك المجتمع على الفرد، لأنه كما يقول: "الفرق بين الأخلاق الاجتماعية والأخلاق الإنسانية فرق في الطبيعة لا في الدرجة، فالأخلاق الأولى هي التي نفكر فيها عادة حينما نشعر أننا ملزمون إلزاما طبيعيا، وفوق هذه الواجبات الواضحة تمام الوضوح نحب أن نتصور واجبات أخرى غامضة تنتضد فوق الأولى كالتفاني، وبذل النفس، وروح التضحية، والمحبة فهذه هي الكلمات التي نلفظها حين نفكر في تلك الواجبات"⁽⁴⁾.

وتكون الأخلاق الإنسانية حسب ذلك، والتي تتجسد في الأبطال والقديسين، هي أخلاق متميزة مصحوبة بالانفعال والتعقل الحاد، والذي هو بدوره يساهم في عملية الخلق، الإبداع وجذب الناس والتأثير فيما بينهم، وعندما نقول الانفعال والذي نجد مثلا عن المتصوفة أو العظماء، لا يعني ذلك التوتر والاضطراب، بقدر ما هو ثورة روحانية تمس الأعماق وتحز الكيان الداخلي للإنسان، كما أنها مرفقة بالفكر والإلهام العقلي المتعالي، بدليل أن كبار القديسين والمسيحيين والمتصوفة هم الذين جسدوا هذه الأخلاق، وذلك يعود إلى الانفعال العميق الذي يوهبون به ويتحول إلى إبداع متميز، بحيث يغير كيفما شاء، لأنه هو مزيج من التفكير والتصوف والحدس والإلهام، أي أن كل هذه العناصر تتشابك فيما بينها وتشكل من ذلك قوة مبدعة فعالة، وتبعاً لذلك تكون الأخلاق المفتوحة نابعة من هذا الحدس والوجدان الممتلئ، وإلا كيف يتسنى للمبادئ الأخلاقية أن تؤدي دورها في الواقع العملي؟ وخير مثال عند برغسون في شأن هذه الأخلاق هي الأخلاق المسيحية، لأن هذه الأخيرة تجسد حقيقة الانفعال والتأثير الكبير على مختلف سلوكيات الناس، بحيث استطاعت أن تتحكم في إرادة الناس بفضل ذلك الانفعال والتسامي الروحاني المتميز الثاوي فيها⁽¹⁾ والذي عادة ما يكون مصدره كما قلنا الإلهام والحدس والبصيرة.

(1) - زكريا إبراهيم، برغسون، المرجع السابق، ص 193.

(2) - حبيب الشاروني، أزمة الحرية بين برغسون وسارتر، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص 40.

(3) - إ. م. بوخنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة، عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، رقم 165، 1992، ص 154.

(4) - هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 42.

(1) - زكريا إبراهيم، برغسون، المرجع سابق، ص 194.

وبناء على ذلك يؤكد برغسون ويقول: "لسنا نرتاب في أن الانفعال الجديد هو المنبع الذي تصدر عنه عظام مبدعات الفن والعلم والحضارة، لا باعتباره حافظاً يهيب بالعقل أن يعملنا ويهيب بالإرادة أن تدأب فحسب، فالأمر أبعد من هذا فهناك انفعالات خلاقية للفكر، الابتكار وإن كان عقلياً فإن الانفعال جوهره الثاوي في أعماقه"⁽²⁾ أي أن الأخلاق المفتوحة هي أخلاق قائمة على الانفعال القوي، وهذا الأخير بدوره يساهم في صنع الركب والبناء المستمر ويحدد مصير ومستقبل الإنسانية جمعاء، لأن غايته التطلع نحو عالم المطلق، فمهما نجد من ابتكار إبداع، واختراع كما يؤكد إلا وهو مصحوباً بهذا الانفعال الحاد الذي غايته السمو نحو أقصى غايات ومسالك إرشاد الإنسانية، وتلكم هي الأخلاق القوية وشتان بينها وبين الأخلاق المغلقة.

ومن هنا يتأكد أنه إذا كان هؤلاء الأبطال والقديس يتقدمون، ويتميزون عن طريق الانفعالات الحيوية التي يمتلكونها، فذلك لأنهم هم أشد قرباً من المبادئ الأصلية، والمبادئ الروحانية العميقة، وهم يدركون الجهد الخلاق الذي تتطلبه الحياة ولهذا فهم بهذا السبيل كثيراً ما يزدادون قرباً من حقل الروحانية القائمة على مبدأ مثالي وهو أنه على النفس أن تنفتح وتحرر من وطأة وقبضة المادة، ومن كل القيود الاجتماعية المائجة، التي تعمل على كبجها، وإهدارها أو تبعدها عن سبيلها المطلق.

وهذا النوع من الأخلاق أو ما يعرف بالأخلاق المفتوحة، هي المثل والنموذج الحقيقي للنظرية الأخلاقية العلمية والفلسفية، لأنها أخلاق تنشأ من المبدأ الأصلي وتتجاوز كل تأوهات ومنغصات الحياة، كما أنها تتطلع لعالم الدفعة الحية أو الوثبة الحيوية (الله)، والتي تقتضي التسامي عن كل الإلزامات الطبيعية وقصرها، لأنه لولا هذا الاتصال الروحاني الذي يمتلكه هؤلاء الأبطال والعابرة، لما كانت لهم قوة حب التفكير في الإنسانية، ومن ثم تكون إرادتهم مليئة بهذا الزخم الروحاني الذي يجعل الإنسانية في مدرج الثقافة والكمال الخلفي، كما نجد أن هذه الأخلاق تستدعي النفس المنفتحة ليست النفس المغلقة المنطوية على ذاتها⁽³⁾.

وعلى هذا فالقوة الإلهية لا تكشف عن نورها، إلا هؤلاء الأبطال المتميزين، وليس في المجتمعات التي تخضع لسلطان العادة والمادة، لأن هؤلاء ذواتهم تنطوي على انفعال خلاق قد لا يتوفر عند العامة⁽¹⁾ فأخلاقهم في هذا تختلف عن الأخلاق الضعفاء والعامة من الناس، ويقول برغسون: "فبين الأخلاق الأولى والثانية ما بين السكون والحركة، الأولى ثابتة لا تتغير وإن تغيرت فسرعان ما تنسى أو تنكر أنها تغيرت فهي تدعى في كل لحظة أن حالها الراهنة هي الحال النهائية، أما الثانية فهي انطلاقة نحو الأمام وهي ضرورية حركية، فالتحرك من أصلها وبهذا تبرهن على تفوقها، بل بهذا وحده تستطيع في أول الأمر أن تعين تفوقها"⁽²⁾.

يتأكد من خلال ذلك أنه يوجد اختلاف كبير بين الأخلاق الأولى المغلقة والثانية المنفتحة، الأولى من سماتها السكون، الجمود، والضعف، فقدان الأمل والانحطاط، ومن ثم لا تشد أواصر الجماعات عكس الثانية التي قوامها التقدم، السمو المنزه، وبناء المستقبل أساسها الخلق والتغير والجدة والإبداع، والسير نحو الأمام وهذا ما يستوفي متطلبات الإنسانية حسب برغسون، وأن هذه الأخلاق هي الأخلاق يتمتع بها الأقوياء والمتحررين من قمع المدنية الطبيعية.

(2) — هري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 50.

(3) — زكريا إبراهيم، برجسون، المرجع السابق، ص 195.

(1) — حسن حنفي، برجسون فيلسوف الحياة، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، 2008، ص 317.

(2) — هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 66.

يتضح من خلال ذلك أنه يوجد فرق جلي ينبغي لنا حسب برغسون إدراكه، لأنه هو دعامة الإنسانية وطريقها الصحيح، وهو أن الأخلاق الكاملة تفوق الأخلاق المغلقة، وهذا ما يتأكد أثناء العودة إلى أخلاق الرواقين والمسيحيين مثلاً، الأولى هي أخلاق تساهم في بناء إنسان مشبع بسلوكات اللذة، أما الثانية فهي أخلاق تغرس في سلوكات الإنسان مبادئ وقيم التسامي الروحاني⁽³⁾ وبناء على هذا نجد أن الأخلاق الأولى هي أخلاق اللذة وهي مثل دانية ولا تسعى إلا إلى طمس عزيمته المجتمعات وتعلن عن تخلفها وانحطاطها، أما الثانية هي مثل عليا لها ما تغير في المجتمع وتعلن تقدمه وانفتاحه على منظومة القيم الكونية، وهذا ما لم يتم دون التفكير والتأمل في طبيعة القيم والسلوكات الإنسانية، أي بناء فلسفة لهذه القيم قصد الرفع منها إلى مستوى القيم الكونية والتي فيها تتأكد العلاقة بين الإنسان والمبدأ الإلهي وهذا هو طريق الفلسفة عموماً، والحكماء، والفلاسفة على وجه الخصوص في تأكيد المبدأ الإلهي.

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن القدامى مثلوا تلك الأخلاق المفتوحة من العباقرة والحكماء والمهندسين لأن مختلف تجاربهم إن لم نقل معظمها مصدرها الوثبة الحيوية، وهي بمثابة الأصل والجوهر، وعن طريق ذلك هم كثيراً ما يفسرون كل شيء حركياً، بحيث لا مجال للسكون أمام الحركة، وبذلك استطاعوا أن يغيروا مجرى الإنسانية عن طريق ذلك الزهد والخلاص الذي جسده فيها، ودليل ذلك ما يشهد به تاريخهم، لكن السؤال المطروح هنا، كيف يتسنى هؤلاء أن يغيروا الإنسانية عن طريق فرض وبناء أخلاق كونية مفتوحة ومتحركة؟ ومن هنا نجد أن برغسون يجيب على هذا التساؤل العميق، باستحضار أمثلة حية أخرى أكثر عمقا هي: وجود التجربة الصوفية، فعندما نجد التغير الحاصل لدى هؤلاء العباقرة تجاه الإنسانية نعرف بأن مصدر ذلك هو الطريق الصوفي، لأنه طريق يجعل هؤلاء العباقرة والقديسين يعودون إلى حياة القلب، أي فتح القلوب أمام ذلك النور والإشراق الذي يتأتى من الوثبة الحيوية (النور الإلهي)، ذلك النور الذي يغمر كل ذواتهم وليس كما يعتقد البعض من أن طريق الصوفي هو طريق الانجذاب والتوتر أو ما إلى ذلك، لكن هذه التجربة هي هبة من قوة متعالية تقذف إلى نفوس هؤلاء العباقرة والأبطال والقديسين، وهذه الهبة جعلت عن طريقهم متاحة للآخرين من عامة الناس، أي أنهم يمتلكون هذه العلاقة المباشرة مع المطلق تمكنهم من فهم مغزى الحياة والتلذذ بطبيعتها، ذلك ما جعلهم ينددون بحب الإنسانية و التحلي بأخلاقها اليقظة، وهذا يدل أن هذه الأخلاق ليست مجرد مجموعة من المبادئ الإلزامات الصارمة بقدر ما هي هداية روحانية واستمالة عارمة خلاقة يكتسبها هؤلاء، وهي التي تخلص وتخرج الإنسانية من كل مضايقاتها⁽¹⁾.

ويقول برغسون تبعاً لذلك أن: "تأسيس الأخلاق على عبادة العقل لا يمكن أن يكون موضوع بحث"⁽²⁾ معنى ذلك أنه يمكننا القول أن العقل يمنح القدرة على الاختيار ولكن وراء هذا العقل توجد دوافع أخرى تحبها تلك الوثبة الحيوية التي هي بمثابة قوة متعالية فوق جميع القوى الأخرى، خاصة هذا العشق الصوفي كما يصطلح عليه برغسون.

وعلى هذا الأساس يقدم برغسون عنصر الدين كأساس للكشف عن هذا العشق الإلهي الذي يكمل الأخلاق ويعمل على تحرير الإنسان أكثر، وعندما يصفه لنا يقول: "يحلوا للناس أن يقولوا أن الدين ظهير للأخلاق من حيث هو يهرب من عقاب، ويطمع في ثواب وقد يكون هذا الذي يقولونه حقاً، ولكن ينبغي أن نذكر أن الدين من ناحيته هذه، لا يفعل شيئاً غير أن يعد بأن تكون العدالة الإلهية

(3) _ المصدر نفسه، ص 68.

(1) _ محمد علي أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفي، المرجع السابق، ص 421.

(2) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 97.

مكملة للعدالة الإنسانية ومقومة لها (...)»⁽³⁾ وهنا تكمن العلاقة الوطيدة بين الدين والأخلاق، وبرغسون ينظر إلى هذه العلاقة في تكاملها وليس في انفصالها لأن الدين هو مكمل لأخلاق الإنسان فإذا كانت هناك عدالة إلهية تكون هناك أيضاً عدالة إنسانية، لأن هذه الأخيرة ناتجة من الأولى، وأكثر من ذلك الدين هو المقوم الحقيقي للإنسان، والإنسان في حد ذاته لا يستطيع أن يحدد مختلف سلوكياته بعيداً عن القيم الدينية، وبهذا كلما بلغنا حقيقة القيم الدينية كلما تعالت قيمنا أكثر وكلاهما يكمل الآخر، وأكثر من ذلك إذا كان الإنسان يثبت وجود الله عن طريق عقله ومختلف القيم التي ينتجها، فإن الدين كذلك يمنح لهذا الإنسان الجانب الإيماني والانفعال الحاد الذي يساعد عقله في الكشف عن حقيقة الله، إلى هنا تتجلى حقيقة التجربة الدينية والفلسفية وتضافرهما في إثبات حقيقة المبدأ الإلهي، لكن إذا كان كذلك فكيف استطاع برغسون التوفيق فيما بينهما في تأكيد حقيقة المبدأ الإلهي، أو ماذا عسى أن يكون الدين في نظر برغسون؟

3. طبيعة الدين:

إن برغسون في تفسيره للدين، يقدم لنا تقسيماً آخرًا ومباشراً على الطريقة التي ميز بها بين ضريين من الأخلاق، فنجد يقر بالدين السكوني والحركي، فالأول هو دين المجتمعات المغلقة أما الثاني فهو دين المجتمعات المفتوحة، لكن حقيقة وقيمة الدين من وجهة نظره لا تتمثل في ذلك الدين المغلق الذي يعمل على قهر الإنسانية، بل هو الدين الحركي الذي يحافظ ويساهم في بناء الإنسانية، ويقدم برغسون هذين الضريين من الدين كالآتي:

1.3. الدين الساكن:

يؤكد برغسون أن هذا النوع من التجربة الدينية، هو تجربة الشعوب البدائية التي لم ترقى إلى مستوى الفكر والحضارة، لأن دين الإنسان البدائي ليس أكثر من دين مزيج بالأساطير والخرافات، وهذا ما نجده في الكثير من الأديان السابقة إنها أديان خرافية وهمية مليئة بالقيم المنحطة والمضللة أو كما يقول: "إذا نظرنا إلى ما كانت عليه الأديان في السابق وإلى ما لا يزال بعضها حتى الآن، رأينا مشهداً يخجل العقل الإنساني ونسيجا من الضلالات وعبثاً تقول التجربة "هذا خطأ"، وعبثاً يقول التفكير "هذا مستحيل"، فإن الإنسانية موغلة في تعلقها بأديان الخطأ والمستحيل"⁽¹⁾.

يعني ذلك أنها أديان مؤسسة على مجموعة من القيم والمبادئ التي تتنافى مع العقل الإنساني، وأنها لا ترقى بالفكر الإنساني بل هي أديان قائمة على الخطأ والمستحيل، لأنها تقع تحت نطاق أوهام العقل الإنساني وهي خاضعة لمشيئته، ولهذا عندما تكون من نتاج البشر على حساب أهدافهم و منطلقاتهم تصبح أديان وهمية لا ترتقي إلى مستوى الإنسانية، لأنها وليدة الضمير الجمعي ذلك الضمير الأسطوري الذي يحركها ويؤدي دوره فيها كما تؤدي الغريزة دورها في مجتمع الحشرات والحيوانات عامة، إنها أقرب إلى الأديان الاجتماعية التي تحدث عنها علماء الاجتماع السابقين من أمثال "أوغست كونت"، "ليني برول" و"دوركايم" من أنها أديان مخلة بالعقل ومنطقها منطق الضلالة، الزيف، الخرافة السمجعة وبالتالي وظيفتها تكريس المبادئ والقيم الجائحة في حياة البشرية⁽²⁾ وإن مصدرها ليس فقط العقل فحسب، ولكنها ذات مصدر خرافي وأسطوري، ذلك ما جعل منها أديان مغلقة على ذاتها وليس لها أي وظيفة في حياة البشر غير القهر والقمع والتجهيل

(3) _ المصدر نفسه، ص 107.

(1) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 113.

(2) _ حسن حنفي، برجسون فيلسوف الحياة، المرجع السابق، ص 318.

وهي تدين لهذه الوظيفة المغلقة والثابتة⁽³⁾ ويكون الإنسان عندما يعتنقها يعمل على تخيل أبطال وهميين وشخصيات وهمية يقوم بتمثيلها كما لو أنها أرواح وآلهة تمتلك قوى يضع فيها كل ثقته الكاملة، ويمارس على أساسها مختلف الطقوس كالسحر، والشعوذة، كأن يهرب من الواقع الحي ويدخل في واقع غير واقعه الحقيقي من دون علم ومعرفة، وهنا فالطبيعة تساعد هذا الإنسان في القيام بهذه المهمة، وتدله على كل هذه الشبهات التي تؤمن بها الجماعة وعلى أساسها يدخل في غنم، وغرم، وعدم الرضا على نفسه⁽⁴⁾.

ويتبين من خلال هذا أن الأبحاث في هذا المجال في اعتقاد برغسون، لم يتم الفصل فيها من قبل من طرف الباحثين والدارسين السابقين من علماء الاجتماع، علماء الدين والأنثروبولوجية، ولو أنه قدم لنا أمثلة على ذلك عندما قال: "وعند هذا الحد يرى "ليفى برول" في مؤلفاته الجديدة بالاعتبار، ولا سيما الأخيرة منها، لكنه في دراسته لم يتعرض لهذه المسألة: كيف اتفق لعقائد وطقوس وهي على هذا الحظ من قلة المعقولة أن تلقى قبولا لدى كائنات عاقلة؟"⁽²⁾ أي أن ليفى برول مثلاً وهو على دراية بهذه الأبحاث في هذا المجال، وكشف لنا عن طبيعة تطور العقل أو عقلية الإنسان على مر القرون، وكذلك كيف ورث مجموعة من العادات والتقاليد والطقوس، لكنه لم يصل إلى أهم مسألة في نظر برغسون وهي كيف لكل هذه العادات، التقاليد، والطقوس وأنماط الفكر المكتسبة أن يتقبلها الإنسان العاقل؟ بل وتتحلى بشكل واضح في سلوكه وحياته، في نظر برغسون "ليفى برول" أغفل الكثير من التساؤلات الجديدة المتعلقة بهذه المسألة، لأنه لو كان كذلك فكيف يتسنى للإنسانية أن تؤسس قيمها في ظل تلك العقائد المضلة؟

إن السبب في ذلك كما يؤكد برغسون يعود إلى أن الفكر يعمل ويتغير بتغير العصر، ولكنه لا ينصب اليوم على نفس الأشياء التي كان ينصب عنها من قبل وهذا ناتج عن أن حاجات الإنسانية بالأمس غير حاجتها اليوم، وهذا هو المبدأ الذي ينتهي إليه البحث اليوم في رأيه⁽³⁾ معنى ذلك أن الفكر ينبغي أن يتحرر على الرغم من أنه يكتسب مجموعة من العادات والأعراف هي ليست تماماً كعادات اليوم، يجب أن يتصرف إزاءها كما لو أنه يحاول تجاوزها، وهذه هي الميزة التي كانت تتميز بها الشعوب المنحطة والبدائية، والشعوب البدائية منذ قرون طويلة مقيدة بهذه القيم الدينية الساكنة على حد تعبير برغسون، وهذا هو الدين الذي لم يعمل قط على استشراف مستقبل الإنسان، لكنه مجرد دين خاضع لإلزامات نابعة من الجماعة ومنطق تفكيره هو منطق بدائي مغلق وغير منفتح، ولا يخرج عن سلطة الضمير الجمعي، التي ينتج عنها قوة الضغط، الخضوع، الطاعة، وفي الحقيقة هذا ما يتنافى مع برغسون الذي يدعو إلى قيم دينية تدعو إلى الانفتاح، التحرر، الإبداع وصنع الركب.

فإذن على الإنسان أن يأخذ بالدين الحقيقي الذي يهديه إلى طريق الصواب والابتعاد عن عقيدة الهوى والضلال حتى يتحرر أكثر من أوهامه، وتوضح علاقته بالإله في صفاتها ونقائها، لأن حياة الإنسان والإنسانية جميعاً مرهونة بصحة عقائدها، لكن ما نجده اليوم يختلف تماماً، كما بين برغسون، لأن حالة الإنسانية تجاه الدين كشفت بأن الإنسانية ذاتها أصبحت تستفيد فقط من كل ما يجيده العقل ويصنعه من أفكار خرافية عقيمة ذات منطق غير سليم وجامد⁽⁴⁾.

(3) عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1989، ص338.

(1) زكريا إبراهيم، برجسون، المرجع السابق، ص200.

(2) هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص114.

(3) المصدر نفسه، ص115.

(1) هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص120.

وتبعاً لذلك فإن برغسون لا يلغي دور الدين والأديان بصفة عامة، بقدر ما يبين لنا أن هذه الأديان التي هي من نسيج الهوى واللغظ كما يصطلح عليها، هي لا تفي بحاجات ومتطلبات الإنسانية بل تظهر سكونها وتدميرها وانحطاطها، لأنها أديان قوامها المنطق الغير السليم، وتنطوي على مبادئ مخالفة لمبادئ للعقل فعندما كان هذا الدين هو ركيزة الشعوب والأمم الأولى بهذه الكيفية، كانت النتيجة أن أصبحت في وهم وانغلاق، تحجر وتحسر على ماضيها، ويذكر برغسون وهو يصف هذا الدين وهذه المعتقدات المغلقة: "نحن لا نعرف إلا إنسانية واحدة ولقد بلغت من التطور حداً، لأن "البدايين" الذين نراهم اليوم لا يقلون عنا قدماً، والوثائق التي يعتمد عليها تاريخ الأديان أمور قريبة العهد، وهذه المعتقدات المختلفة التي نعرفها الآن هي إذن نتاج تكاثر طويل وقد يجوز أن نرى ما فيها من غرابة ومخالفة للعقل⁽²⁾. وحتى الإنسان منذ العصور السابقة كثيراً ما يمتلك نزوع وميل لهذه الأديان المخالفة للعقل، لكن يا ترى ما طبيعة هذا النزوع؟ أو على الأقل ما مصدر هذا الميل الذي يؤدي بالإنسان، إلى العيش في كنف هذه القيود الضالة والديانات الساكنة؟

إن برغسون في تحليله لهذه المسألة المعقدة، يجيبنا بصريح العبارة من أن ذلك النزوع هو غريزة كامنة في الإنسان وهي التي تحضه دائماً على السلوكات الآلية التي لا تمثل بالنسبة له سوى أضغاث⁽³⁾ يعني ذلك أن هذا الميل هو ميل غريزي، وكثيراً ما يشبه الميل الذي نثر عليه في مجتمع الحشرات كما ذكرنا سالفاً، لأن الغريزة هي مصدر هذه السلوكات البليدة، التي هي سلوكات آلية أكثر منها حيوية ذلك ما يمت صلة بحياة الإنسان الأول، والذي لا يستطيع التخلص من كامل سلوكاته وعاداته الخرافية منذ أمد طويل، بل يستطيع الانفلات من قبضتها، وهذا للدليل واضح أن الدين هنا لم يكتسي معناه بل انحرف عن وظيفته التي هي من المفترض أن تكون في خدمة الإنسانية، وهذا مما جعل من دوركنا في نظر برغسون يوضح أن مثل هذا الدين هو دين الجماعة الذي يفرض سلطته على الفرد.

ويضيف برغسون كذلك أن الإنسان باستطاعته أن يتجاوز هذا الدين الساكن، ويفتح على الدين الكوني والحركي المفتوح الذي هو دين الإنسانية، لأنه هو السبب الحقيقي الذي أدى إلى تعثر الكثير من المجتمعات الراهنة اليوم، إذا أردنا تقديم قراءة وإسقاط لمقاربة برغسون من جديد وإحيائها في عالم اليوم، لأن الكثير من مجتمعاتنا اليوم لم تنخرط بعد في الكوني الديني والأخلاقي، بل لا زالت في هذا السكون الذي غمر فؤادها، وهي باستطاعتها أن تنفتح وتستمر في الخلق والإبداع وتعمل على بناء قيم جديدة، لكن إذا استطاع العقل كذلك التحرر من الأوهام التي صقلت فيه منذ زمان طويل، والتفأول بقيم التحرر والكمال والتسامي، لهذا يقرّ برغسون بأننا ملزمون بتجاوز هذا النمط الديني المغلق، وكل هذه المعتقدات الزائفة لنؤسس لدين كوني حركي قوامه بناء مستقبل الإنسانية من جديد، وبعث قيمها الأخلاقية المثلى والعليا، لأنه كما يقول برغسون: "إن الدين السكوني يربط الإنسان بالحياة، وبالتالي يربط الفرد بالمجتمع، بأن يروي له أفاقيص كالأفاقيص التي يهدد بها الأطفال وهذه الأفاقيص ليست كغيرها من الأفاقيص"⁽⁴⁾.

لكن إذا كان الدين الساكن في اعتقاد برغسون مصدر انحطاط الإنسان وانغلاقه كيف يتسنى لنا تجاوز هذا النمط الديني المغلق وكيف نؤسس لدين حركي مفتوح؟ أو ما هو الدين الحركي في نظره؟

2.3. الدين الحركي (المفتوح): إن عرض برغسون لمسألة الدين الحركي والمفتوح ودعوته للانتقال إليه وكذا التشبّع بقيمه، إنما أراد من وراء ذلك أن يكشف لنا عن أسرار تجربة روحانية يكون منطلقها الحدس، والذي يكمل العقل وليست الغريزة، وغايتها في ذلك تجاوز حياة

(2) _ المصدر نفسه، ص121.

(3) _ المصدر نفسه، ص122.

(4) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص226.

الجماعة أو المجتمع وبناء المستقبل، وتحقيق الاتصال المستمر بالله، كما أنها تجربة تصر على عدم التعلق أكثر بالحياة بغية تحقيق قيم السلام، الحرية، والتآخي، لكن ذلك لا يتحقق ويكتمل في اعتقاده إلا بالعودة إلى تجارب الصوفية.

إن الدين الحركي يجسده التصوف، والتصوف في نظر برغسون هو الطريق الوحيد الذي تستطيع أن تظهر به الإنسانية دياناتها من خرافاتها وأوهامها، لكن هذه التجربة لا يتم العثور عنها إلا عند كبار المتصوفين، المسيحيين، أو التصوف المسيحي، ورغم الاختلاف الموجود بينهما كما يوضح برغسون إلا أنهم يجسدون نموذج الدين الحقيقي والكمال، ولو أن ذلك يتضح عند الكثير من المتصوفة السابقين من أمثال: باسكال، تريزا داقيللا، جان دلا كروا، وهناك اختلاف متميز بينهم في الكشف عن تجربتهم الحسية، إلا أن مصدر هذه التجربة يعود إلى تلك القوة الإلهية والتي توجد وراء الحياة وتدفع بها إلى الاستمرار والتواصل والخلق، والإبداع⁽²⁾.

وبناء على هذا يكون الدين الحركي، هو التصوف الكامل وطريق الصوفية بمثابة كشف وتطلع إلى عالم القوة الإلهية وهذا الطريق فيه جهد شاق، لا يمكن التعبير عنه وإدراكه في غاية البساطة، إنه تطلع للحياة، ومثل هذا الجهد يبلغه قلة من الناس الغير العاديون، وهؤلاء كما سيصفهم برغسون لا يظهرون عند قدماء اليونان، ولا عند الهنود القدامى ولكن نجد أمثلتهم في التراث الصوفي المسيحي، أولئك الذي يمجّدون الأخذ بطريق الزهد والترفع عن الحياة، متمتعين بالحب والشغف الصوفي ذلك الحب الذي يعد تطلع نحو الإله⁽¹⁾.

وعندما يصف لنا برغسون تلك الصوفية يقول: "أما الصوفية الكاملة فهي في الحق صوفية كبار المتصوفة المسيحيين، ولندع مسيحيتهم جانبا، ولننظر فيهم إلى الصورة دون المادة مما لاشك إن معظمهم قد مر بأحوال شبيهة بالمراحل التي انتهت عندها الصوفية القديمة، ولكنهم مروا بها مرورا وحين انطوا على أنفسهم يتحفزون لجهد جديد كل الجدة، إنما حطموا سدا، أن تيارا واسعا من الحياة قد اجتاحتهم، فانطلقت من حيويتهم قوة خارقة في التفكير والعمل"⁽²⁾ ومن هنا فنموذج الدين الحركي عند برغسون لا يتضح من دون الأخذ بتجربة هؤلاء المتصوفين وخير نموذج للتصوف، هو تصوف المسيحيين، هؤلاء إنما يحملون في ذواتهم قوة تمتلك نصيب من القوة المتعالية وبفضها اكتسبوا ذلك الحب الكلي الذي عن طريقه يستطيعون توجيه الإنسانية وبناء أخلاقها، لأن قيمهم هي بمثابة وسائط بين الأفراد والله.

وعلى هذا الأساس فالمتصوف المسيحي ينطلق في تجربته من الحب أو ما يدعى بالحب الصوفي الذي يتملكه، وهذا الحب لا يتجلى في العلاقة التي يقيمها الإنسان بالله وحده، بقدر ما يعني إقامة علاقة حب بالله لجميع الناس، ومن هنا يكون للمتصوف موقعا بالنسبة إلى الله وجميع الناس، إنه يمتلك تجربة روحانية عميقة نابعة من الوجدان كما تتجلى أكثر في هذا الحب والاتصال الأبدي وخدمة الإنسانية، وبذلك فإن الكثير من المتصوفة يصفهم البعض بأنهم مرضى ومرضهم هو مرض عقلي، لكن برغسون نفسه يبطل هذا الادعاء على أساس أنه يمكن التسليم بوجود مرض عقلي وشدوذ في أوساط المتصوفة، لكن ألا تتوفر بين هؤلاء أسى نماذج من النشاط الإنساني؟ بدليل أن العقول التي كانوا يمتلكونها إن هي إلا قواعد وركائز بالنسبة للإنسانية وتجارب عظمى تتصدي لكافة الانحرافات الناجمة فيها⁽³⁾.

وفي نظر برغسون هؤلاء إنما اكتسبوا ما يعرف بالسلامة العقلية التي مكنتهم من أداء واجبهم تجاه الله والإنسانية، ولهذا يقول: "إن هذه السلامة العقلية تنجلي في الإقبال على العمل، وفي ملكة التلاؤم مع الظروف، وتحديد هذا التلاؤم بتحديد الظروف، وفي المتانة مع المرونة،

(2) - زكرياء إبراهيم، برغسون، مرجع سابق، ص 201.

(1) - إم. بوخنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، المرجع السابق، ص 155.

(2) - هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 243.

(3) - زكرياء إبراهيم، برغسون، مرجع سابق، ص 203.

والنظر البعيد الذي يميز بين الممكن وغير الممكن، وفي البساطة الفكرية التي تحل العقد، أي أن هذه السلامة العقلية هي الذوق السليم المتفوق أفليس هذا بعينه هو ما تجده لدى الصوفيين الذين نتحدث عنهم؟ ألا إنه هو القوة العقلية بعينها⁽⁴⁾ ومن هنا يكون للمتصوفة قدرة عقلية تفوق الناس العاديين وهذه القدرة العقلية هي ذلك الذوق الذي يحصلون عليه من عالم الإلهي، ولا يبلغه أي كان من الناس بل يصله القلة من الناس أولئك الذين هم في أشد حذق وبقظة واستعداد نفسي ذاتي مكتمل، وعلى الرغم من أن برغسون استحضر نموذج المتصوف المسيحي في تجسيد القيم الكونية، وأن التجربة المسيحية ضمن التجارب المتفوقة في تأكيد القيم الكونية إلا أن برغسون في هذا الطرح لم يسلم فيه من الكثير من الانتقادات الموجهة له، منها ما هو متعلق بما يلي: كيف يتسنى لنا تأكيد العلاقة مع الله عن طريق هذه التجربة الصوفية المسيحية؟ لعل برغسون قدم لنا بعض الحلول المتعلقة بهذا الإشكال وهي أن المتصوف المسيحي هو بمثابة تجربة للعلم والفلسفة ومكمل لهما، لكن يبقى هذا الحل حلاً مفتوحاً ومجالاً لعدة تأويلات وقراءات في فلسفة الدين عند برغسون لدرجة أنه يوجد من يعتقد بأن نهاية برغسون في مشروعه الفلسفي خاصة مجال الدين نهاية غير مكتملة.

يؤكد برغسون أن المتصوفة خاصة المسيحيين يمتلكون نفوس مليئة بالفيض الرباني تحمل قيم دينية أخلاقية مثالية سامية وعشق إلهي خالص، وعندما يصفها يقول: "إن الآلة المصنوعة من فولاذ شديد المقاومة، والمهيأة للقيام بجهد هائل، لتشعر بمثل هذا الحال، إذا هي وعت ذاتها، أثناء التركيب (...)"، إن النفس الصوفية تريد أن تكون هذه الآلة. فتزِيل من جوهرها كل ما ليس نقياً نقاء كافياً وكل ما ليس كافياً المقاومة، والمرونة أيضاً، حتى تكون أهلاً لأن يستخدمها الله⁽¹⁾ وعلى هذا يكون الدين الكامل والمنفتح لا يتجسد من دون وجود هذه النفس المليئة بالتقوى، والاستعداد والزهد الدائم بغية تحقيق التواصل مع الله، ولا نعثر عليها إلا في تلك الشخصيات المسيحية العبقريّة والمتصوفة، وهي التي تعمل على تجسيد كل القيم العليا، هذه الأخيرة التي لا يمكن لها أن تتجلى بدونها كما لا يمكن للإنسانية أن تحس وتشعر بحياتها الأخلاقية والدينية لولا حضورها وعلى ذلك فالصوفي هو خير مثال يجسد لنا هذا الدين.

ويتضح هنا بأن شخصية الصوفي مختلفة عن شخصية الفئات الأخرى لأنها شخصية زهيدة في الحياة وتتقبل كل ما من شأنه ينشد العلو والتسامي بالحياة، كذلك هي ذات جهد مباشر مع الإله الخالق، كما أن كل هذا الجهد هو من نبع الخالق إن صح التعبير، والصوفي هنا لا يدرك كل هذا العمل الجبار إلا إذا كانت نفسه محتواة في نفس الإله الخالق والمبدع، وعن طريق ذلك تصبح أنه مندمجة في أنا كلية تتقاسم معها تجربة الحب الكونية⁽²⁾ تلك هي تجربة التصوف كما بينها برغسون رغم أنها نوع من التعالي، لكنها تشيد بالعلاقة مع الواقع، كما أنها تشكل جزءاً من الذات الباطنية العميقة، أي على وجه التحديد منطقة اللا شعور، لأن اللا شعور يسمو بالنفس إلى أعلى مراتب الروحية أين يتحقق الاتحاد بينها وبين الله وهكذا يقيم برغسون العلاقة بين الحقل الصوفي والحقل السيكلولوجي فكلاهما مكملان لبعضهما البعض.

وينتج من خلال هذا أن تجربة الحياة، تقتضي تجربة التصوف والتي هي تجربة إلهية كونية مستهدفة⁽³⁾ ولذلك يجب على المتصوف في نظر برغسون أن يؤدي دوره كأن يوجه الإنسانية إلى الطريق الصحيح، يفكر في بنائها كلما شعر أنها هي في سبيل الانحراف ويفكر في مستقبل أجيالها، وتكون مهمته مهمة شاقة تتطلب جهوداً جبارة ويقول برغسون معبراً على ذلك: "فما يكاد الصوفي يهبط من السماء إلى

(4) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 244.

(1) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 248.

(2) _ مراد وهبة، المذهب في فلسفة برغسون، مكتبة الأنجلو المصرية، دار ودهان للطباعة والنشر، ط 2، 1978، ص 143.

(3) _ المرجع نفسه، ص 144.

الأرض حتى يشعر بالحاجة إلى أن يمضي إلى الناس يعلمهم يجب أن يبلغهم أن العالم الذي ندركه بالأعين، وإن كان حقيقياً، فإن ثمة عالماً آخر غيره. وليس هذا العالم بالمتاح أو الممكن فحسب، كما قد يؤدي إلى ذلك البرهان العقلي، بل إنه يقيني يقين التجربة⁽¹⁾.

وهذا يدل على أن الصوفي يحمل في جوفه حقيقة تختلف عن الحقائق الأخرى، تستطيع أن توجه حياة الناس ومن ثم كان لزاماً عليه أن يطلعهم عليها، ولا بد أن يخبرهم بالحقيقة المطلقة التي توجد خلف هذا العالم المحتمل، والتي ينبغي بلوغها دوماً والأخذ بمبادئها، لأن المتصوف بهذه المهام الشاقة يثبت أنه يمتلك حبا حقيقياً للإنسانية، ليتضح بذلك كما يؤكد برغسون أن الحب الذي امتلكه وسيطر عليه ليس هو حب الإنسان لله فحسب، بل هو حب الله لجميع البشر والإنسانية عامة، فمن خلال الله وبالله، يجب الإنسانية كلها حبا إلهياً مطلقاً⁽²⁾ ومثل هذا الطريق لن يتحقق في اعتقاد برغسون من دون حضور ذلك التجاوز سواء تجاوز الأنا الفردية لأنها أو لأن الجماعة، حتى يتحقق هذا الحب الكامل والمسدود أمام تجربة الخلاص.

ويكون عن طريق هذه التجربة نستطيع الكشف عن وجود الله، لأن الإله البرغسوني هو موجود فينا ومستقر داخل تجربتنا الداخلية بل ومحايث بالنسبة لها، أي أنه كلما اتجهنا إلى أعماقنا كلما وجدنا الله حاضراً فينا، فلا مجال للعقل عند برغسون في أن يثبت لنا وجوده، فكل الأدلة التي يملكها العقل تظل ناقصة هي الأخرى ومن ثم فهي غير كافية لتأكيد على حضور ومشروعية هذا الخالق، ويتضح من خلال هذا أن تلك البراهين العقلية لا تفي وتحيط بجوهره، كالدليل الأرسطي مثلاً المحرك الذي لا يتحرك، أو البرهان الغائي، الذي يقر بوجود خطة مستهدفة من قبل⁽³⁾ ولهذا يقول محمد علي أبو ريان في شأن التجربة الصوفية عند برغسون: "التجربة الصوفية هي الطريق الأوضح لحل مشكلة الله حلاً تجريبياً (...)"، هي مشاهدة عيانية، ورصد روحاني، ومثول في مواجهة الحضرة الإلهية⁽⁴⁾ وعليه يكون الإله البرغسوني مختلف عن إله الفلاسفة، الذي هو من نسيج عقلي، بخلاف ذلك نجد برغسون يثبت لنا الإله بالتجربة الصوفية التي هي التوق، والحب، والذوق، والسمو نحو الأعلى، أي أنه ذلك الإله الذي بمثابة ديمومة الحياة⁽⁵⁾.

وبناءً على هذا يكون الدين من منظور برغسون هو هذه النبرة الصوفية الحارة التي تقذف في النفس الإنسانية، لأنه بفضل التصوف يستطيع الإنسان أن ينال شيئاً من الحقيقة الدينية⁽⁶⁾ ليكون الدين الحركي الذي يريد أن يقدمه برغسون لا يخرج عن أن يكون هو هذه التجربة الصوفية (المسيحية) وعن طريقها تستطيع الإنسانية أن تجد نفسها من حين لآخر، بل وتعمل على تكريس مجمل قيمها الكونية وكذا محاكاة القيم الإلهية ومن ثم تكون ضمن منظومة القيم الإنسانية العليا، و يكون الدين ذات صلة وثيقة بهذه التجربة الصوفية التي عمل على تبسيطه لكافة الناس كذلك التبسيط الذي نحصل عليه من العلم⁽¹⁾.

ويقول جيل دولوز (Gilles Deleuze) في معنى الصوفي عند برغسون: "إن الصوفي هو الذي يلعب بكل (عملية) الخلق، الذي يخترع تعبيراً لها أكثر ملائمة بقدر ما يكون أكثر دينامية إن الروح الصوفية، الخادمة لإلهه منفتح ومتناه (تلك هي سمات الاندفاع الحيوي)

(1) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 249.

(2) _ المصدر نفسه، ص 250.

(3) _ مراد وهبة، المذهب في فلسفة برغسون، المرجع السابق، ص 137، 138.

(4) _ محمد علي أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفي، مرجع سابق، ص 423.

(5) _ المرجع نفسه، ص 139.

(6) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 254.

(1) _ هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص 255.

تحرك نشاط كل الكون وتعيد إنتاج انفتاح كل شيء فيه ليرى أو ليتم تأمله⁽²⁾ أي أن الصوفي عندما يكون ذات اتصال عميق بالعالم الإلهي، يكون قد عمل على تلبية نداء الله واستجاب له، حينئذ يستطيع أن يكون مشاركاً في عملية الخلق، الإبداع، وكذا جر الإنسانية إلى حقل الروحية الحقيقية وفي هذا الحقل تشعر بكل قيمها العليا، ويكون التصوف هنا هو بمثابة تجربة تعمل على الخلق، الانفتاح، التسامي وتجاوز كل القيم الأخلاقية، لأنها تجربة فوق العقل وتسمو عنه، وتسعى لتحقيق الاتحاد مع الله وبلوغ كماله، وبذلك تكون هذه هي المرحلة النهائية للمتصوف والتي لا يمكن وصفها مباشرة، بل حتى كبار المتصوفين عاجزين عن وصفها لأنها فيض وهذا الفيض يتضح كلما كان الاتحاد بالإله كاملاً، ولهذا فالنفس التي يحتوي عليها الصوفي هي نفس طموحة في الظهور بذاتها، وملحة لذلك الإشراق والنور الإلهي الكامل، وبفضل ذلك تحقق بينها وبين الإله ذلك الاتحاد الكلي والنهائي⁽³⁾.

ويتضح لنا كذلك مما سبق أن العاطفة التي يحب الصوفي بها البشرية، لا حدود لها وليس هذا الحب امتداد لغريزة، بل يتعدى حدود الغريزة، ولا ينجم عن تفكير بشري، إنه يطابق حب الله هذا الحب الذي أوجد كل شيء والذي هو مفتاح سر الخليقة⁽⁴⁾ وهذا ما يعرف بالحب الصوفي عند برغسون وهو الحب الذي يتحقق عندما تمتلك النفس عاطفة جياشة للتطلع إلى المرتبة الإلهية وتحقيق ذلك التواصل الكلي معها وفي الحقيقة هذا هو المنبع الحقيقي للإنسانية ومستقبلها، وكل قيمها الأخلاقية والدينية، بحيث لا وجود للنفس من دون هذه المشاركة الذوقية مع الإله، لأنه كما يقول: "التصوف لا جدال فيه هو مصدر التحولات الأخلاقية الكبرى، الإنسانية بدون شك ليست بعيدة عن ذلك"⁽⁵⁾.

لكن إذا كانت هناك أخلاق مغلقة ودين ومغلق، وأخلاق مفتوحة ودين حركي مفتوح أيضاً نجد أن ذلك ما يؤدي إلى بروز نوعين من المجتمع في نظر برغسون وهما المجتمع المغلق والمجتمع المفتوح.

— فالمجتمع المغلق هو مجتمع إلزامي مشبع بالقيم الأخلاقية والدينية المتعصبة المغلقة، بالإضافة إلى ذلك يخضع لمجموعة من الضوابط والأحكام نابعة من ذاته وينطوي عليها ولا يستطيع تجاوزها يعبر عنه برغسون بأنه: "هو المجتمع الذي يتماسك أفراداً فيما بينهم، غير حافلين بسائر الناس، مستعدين دوماً لهجوم أو دفاع، مقتصرين أخيراً على موقف القتال وذلك هو المجتمع الإنساني الأول ولهذا المجتمع خلق الإنسان، كما خلقت النملة لقرية النمل"⁽¹⁾ أي أنه مجتمع يفقد لقيم عليا ينطوي على ذاته وديانته ديانة مغلقة وساكنة، بل هي أيضاً وليدة ذلك الضغط والإلزام الذي ينطوي عليه، إن هذا الدين الذي هو سكوني يمثل أساس المجتمع المغلق⁽²⁾.

— أما المجتمع الثاني هو المجتمع المفتوح بحيث نبذه يتميز عن المجتمع الأول، بحيث يدعو إل بناء الإنسانية بالإضافة إلى ذلك يمثل الإنسانية بكاملها، قوامه نفوس صفوة⁽³⁾ وهذا النوع من المجتمع هو المجتمع الذي يؤمن بالدين الحركي، والأخلاق الحركية المفتوحة هو مجتمع روحاني

(2) — جيل دلوز البرغسونية، تعريب أسمى الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص132.

(3) — غالب مصطفى، برغسون، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1998، ص122.

(4) — المرجع نفسه، ص126.

(5) — Henri Bergson, les deux sources de la morale et de la religion, 4^{em} édition, quadrige, paris, 1990, puf, p.

(1) — هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، المصدر السابق، ص287.

(2) — المصدر نفسه، ص288.

(3) — المصدر نفسه، ص288.

كامل لأنه يدعو إلى تمجيد القيم العليا، ويمتلك روح الإرادة والعزيمة القوية لصنع الركب والحضارة، وهذا المجتمع يتجاوز المجتمع الأول وبرغسون كثيراً ما يصبر على الأخذ بهذا النموذج والاقتداء به.

إن برغسون في نهاية عرضه لموضوع التجربة الدينية والأخلاقية، دعا إلى ضرورة بناء المجتمع بناءً أخلاقياً ودينياً متيناً، كما يجب مراعاة كل جوانبه؛ منها الأخلاقية والدينية، ولهذا كان يدعونا إلى ضرورة التحلي باليقظة أثناء اللجوء نحو الكماليات والملاذات وتجاوز كل أشكال الفساد التي تحيط بالمجتمع من أجل تفادي خطورتها، وأن هذا لا يتم إلا بالعودة إلى ما يعرف "بطريق البساطة" الذي هو الطريق الأنجع للتخلص من كل الصعوبات والتعقيدات والحاجات التي تعترض ذلك المجتمع وعندما نقول طريق البساطة نعني بذلك العودة إلى الحياة البسيطة حياة الصفوة من العباقرة والممتازين الذين صنعتهم القوة الإلهية بصفة عامة⁽⁴⁾.

لكن رغم ما قدمه برغسون من أفكار دقيقة في نظريته الأخلاقية والدينية، إلا أنها تبقى نظرية يشوبها نقص من بعض الجوانب التي أدلى بها النقاد المعاصرين، ولعل هذه الانتقادات متمثلة فيما يلي:

— منها أن برغسون حاول من خلال هذه النظرية وهذا ما يثبته مؤلف منبع الأخلاق والدين أن يقدم مصدرين أساسيين للدين والأخلاق وهما المصدر الروحاني (قوة إلهية) والمصدر الاجتماعي (العقل)، بينما الواقع يتناقض ما يقره ويثبته برغسون على أساس أنه يوجد مصدر واحد.

— هناك من يقول هذه النظرية هي ثنائية في ظاهرها ولكنها واحدة في باطنها وجوهرها، وأن هناك مصدر واحد لم يصرح به برغسون مباشرة قد يكون الإله، بالإضافة إلى ذلك استخدامه للملكة الأسطورية في تفسير الديانة الساكنة غير كاف لتبرير هذه الديانة، أما إذا حاولنا تقييم نظريته للتصوف واقتراحه أن التجربة الصوفية المسيحية هي التجربة المتفوقة، فإنه كما يعتقد الكثير من النقاد لجأ إلى التجارب الصوفية فقط من أجل أن يجد دعماً وسنداً لتبرير اكتمال فلسفته ومشروعه، ذلك ما جعل منه لم يأخذ بالمعتقدات المسيحية، هذا ما أدى بالبعض إلى الاعتقاد أنه لم يستوعب معنى التصوف الحقيقي، وأنه لم يستطيع التوفيق بين الدين والفلسفة في إثبات المبدأ الإلهي، كما لا يفوتنا أن نقول أيضاً بأن نزعة التجريبية كانت بالنسبة له بمثابة حاجز أمامه في حل مشكلة الله، ولذلك بقيت نظريته في الله نظرية غامضة⁽¹⁾ وضمن كل هذه الانتقادات الموجهة لبرغسون بقي لنا أن نقول على الرغم من أن إسهامه في مجال الأخلاق والدين بقي ناقصاً، لكنه على الأقل استطاع أن يقدم محاولة للتوفيق بين الفلسفة والدين بغية إثبات مبدأ الله.

4. خاتمة:

ما نخلص إليه مما سبق ومن خلال هذه الورقة البحثية، هو ما يلي:

— إن نظرية برغسون في مجال الأخلاق والدين رغم ما تعرضت إليه من انتقادات ونقائص عديدة تبقى هي نظرية لا تقل أهمية، عن النظريات الأخرى لأنها نظرية تهدف لبناء حياة الإنسان ومستقبلها، فإذا كانت الأخلاق تحاول تكريس مبدأ العدالة الإنسانية، فإن الدين هو الآخر يسعى لإثبات العدالة الإلهية التي هي عدالة في خدمة الإنسانية، وذلك من خلال إثبات مسألة جدية وهي أن الإله موجود فينا كما لو أنه ماهية وجدانية، بل يتأكد ذلك أكثر بالأخذ بالتجربة الصوفية التي هي تجربة تكشف لنا عن ذلك الكوني الإلهي وهذا ما يثبت أن كذلك الأخلاق والدين في علاقة متصلة عند برغسون.

(4) — زكرياء إبراهيم، برجسون، المرجع السابق، ص 208.

(1) — زكرياء إبراهيم، برجسون، المرجع السابق، ص 209 _ 210.

__ كما أن هذه النظرية تبرز أهميتها أكثر في تمجيدها للقيم الكونية، والعمل على السمو بها من أجل دحض كل القيم المادية الزائفة التي كان يدافع عنها المذهب الآلي والمادي، وكذا بمحمل العادات والتقاليد الزائفة التي عملت على كبح مستقبل البشر، والذي هو مرتبط بالدين والأخلاق، ورغم أنها صادفت العديد من العقبات في تطبيقاتها إلا أن ذلك يتضح فقط من الناحية الظاهرية، أما من الناحية الباطنية فبجدها نظرية باشرت الإنسان تطبيقاتها وذلك ما تؤكد الدراسات الحديثة لأن فلسفة برغسون بصفة عامة هي الأخرى تندرج ضمن الفلسفات التي تدافع عن المجتمع والإنسان بصفة خاصة وعن الإنسانية.

__ أيضا عرض برغسون لسؤال الأخلاق والدين وكذا مسألة الانفتاح والانغلاق التي هي مسألة راهنية في عصرنا الحالي، اتضح في الحضارة الغربية وحتى في العالم بأكمله اليوم، أن المجتمع المنتصر والمفتوح في نهاية المطاف هو المجتمع الذي يؤكد فاعلية هذه القيم الروحانية، وتجاوز كل القيم المادية الساكنة، وهذا ما نحن اليوم بحاجة ماسة للظفر به في واقعنا الحالي والذي هو واقع إن صح التعبير منحصر في ديمومة اللامعنى والانغلاق.

__ كما أن الدين والأخلاق التي يدعو إليها برغسون ليست هي قيم تعارض الإنسانية بل هي في خدمتها لأنها قيم تهدف إلى الحرية والسلامة، الطمأنينة، والتآخي، ودليل ذلك دعوتها للتحرر من الانغلاق وتكريس ثقافة التفتح التي هي أساس الحياة، وأكثر من ذلك نظرية الأخلاق والدين عند برغسون هي نظرية تثبت معنى وقيمة الحياة.

5. المصادر والمراجع

1/ المصادر

أ/ باللغة العربية

1. هنري برغسون، التطور المبدع، نقلة إلى العربية جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، لبنان، 1981.
2. هنري برغسون، منبع الأخلاق والدين، ترجمة سامي الدروبي، عبد الله عبد الدائم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971.

ب/ باللغة الأجنبية

1. Henri Bergson, les deux sources de la morale et de la religion, 4^{em} édition, quadrige, paris, , puf. 1990.

2/ المراجع

1. إ. م بوخنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة، عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، رقم 165، 1992.
2. جيل دلوز، البرغسونية، تعريب أسمة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
3. حبيب الشاروني، أزمة الحرية بين برغسون وسارتر، دار المعارف، القاهرة، 1963 .
4. حسن حنفي، برغسون فيلسوف الحياة، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، 2008.
5. زكريا إبراهيم، برغسون، دار المعارف، مصر، 1968.
6. صادق جلال العظم، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة، دار جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2012.
7. عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1989.
8. غالب مصطفى، برغسون، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1998.
9. محمد علي أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ج4، 1996.
10. مراد وهبة، المذهب في فلسفة برغسون، مكتبة الأنجلو المصرية، دار ودهان للطباعة والنشر، ط2، 1978.